المبحث الأول

في حقيقة المعجزة وحكم الإعتقاد بها

مفهوم المعجزة اللغوي
مفهوم المعجزة الإصطلاحي
حقيقة المعجزة عند المتكلمين

في حقيقة المعجـزة وحكم الإعتقاد بها

أولاً : مفهوم المعجزة اللغــوى :

قبل التعرض لرأى الفلاسفة والمتكلمين فى المعجزات وخوارق العــادات ورد ابن رشد على الغزالى والأشعرية فيها ، كان من الضرورى عرض مفهوم المعجزة فى اللغة والاصطلاح الشرعى وبيان حقيقة المعجزة وحكـم الاعتقــاد بــها وفــهم السابقين على ابن رشد لها .

★ **والمعجزة فى معناها اللغوى لها عدة معان :**

١ - فهى اسم مشتق من العجز بمعنى الضعف وعدم القدرة أو الحزم ، فالعاجز هو الضعيف المقهور ، والتعجيز هو التثبيط . ودليل ذلك فى القرآن قوله تعــالى : فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتــى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النـادمين .(١) فعجز يعجز عن الأمر إذا قصّر عنه ولم يدركه .

٢ - وهى من الحيرة ، لأن الإعجاز أو العجز يسلب القدرة الذاتية على المواجهــة فتتولد الحيرة لذا يقال : أعجز فلان أى حيره فلم يقدر عليه وأصبح عــاجزاً ، ونقول : وقف فلان عاجزاً أى حائراً متردداً لا يقوى على قول شــئ أو فعــل شئ فالحيرة عجز وضعف لقولنا : فلان أعجزه المرض أى أقعــده المــرض وأضعفه ونقول أيضاً : أعجز القرآن الناس أى أثبت ضعفــهم وحيرتــهم فلــم يقدروا على الإتيان بمثله أو فهم جل حكمه .

٣ - وهى من أصل الشيء وأساسه لأن أعجاز النخل أصولــها وأعجــاز الأمــور أواخرها ، ودليل ذلك فى القرآن قوله تعالى " تنزع الناس كأنهم أعجــاز نخــل منقعر : (٢) فى إشارة إلى ضرورة تدبر عواقب الأمور قبل الدخول فيها .

---

(١) المائدة : ٣١ .

(٢) القمر : ٢٠ .

٤ – وهى من القدرة الفائقة التى لا مثيل لها والتى لا يقدر عليها بشر . فالمعجز هو القادر وهو الله وحده . ودليله فى القرآن قوله تعالى : " وما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الأرض " (١) .

وقوله تعالى : " فاعلموا أنكم غير معجزى الله " . (٢)

٥ – وهى من العناد أو التقصير ، فالعاجز عن الأمر المقصر عنه ، والمعاجز المعاند ، ودليل ذلك قوله تعالى : والذين سعوا فى آياتنا معاجزين . (٣) قال الزجاج : معناه ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون وأنه لا جنة ولا نار . وفى تأويلها أنهم يعجرون من اتبع النبى ﷺ ويثبطونهم عنه وعن الإيمان بالآيات وقد أعجزهم.

ولا شك أن هذه المعانى الاشتقاقية كانت المصدر لفهم حقيقة المعجزة على أنها الأمر الخارق للعادة المقترن بالتحدى ، على اعتبار أن المعجزة هى القدرة الخارقة التى تفوق قوى البشر ، وهى الأمر الذى يظهره الله على يد النبىﷺ تأييدا لنبوته ، وأن حكمتها إثبات عجز البشر وضعفهم فى مقابل قدرة الله المعجزة القادرة وحدها على الإتيان بالمعجزات والخوارق ، ومن ثم كان الإجماع على أن المعجزة هى ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله وإذا شاهدوها أو سمعوا بها تأكدت معرفتهم وصدق إيمانهم . (٤)

ثانيا : مفهوم المعجزة الاصطلاحى :

تظهر حقيقة المعجزة فى معناها الاصطلاحى من خلال عدة معان ، ومن خلال ارتباط المعجزة بباقى الخوارق كالسحر والكرامات ومن خلال إرتباطها بالوجوب والإمكان والوحى والرسالة ، ومن خلال جوهرها كدليل وبرهان .

---

(١) فاطر : ٤٤

(٢) التوبة : ٢

(٣) سبأ : ٥ ، الحج : ٥١ .

(٤) راجع : أصل كلمة معجزة ومعانيها الاشتقاقية فى لسان العرب لابن منظور . طبعة القاهرة – الكتاب المصرى ج٤ ص٢٨١٦ وطبعة دار الفكر – بيروت م٥ ص ٣٦٩ – ٣٧٣ . وكذلك المعجم الوسيط ط٢ ١٩٧٢ . ج٢ ص ٥٨٥ ، وفى المختار الصحاح ص ٤١٣ ، ٤١٤ .

★ **فمن جهة الشكل** : تظهر حقيقة المعجزة فى صور ثلاث قولية وفعلية وتركية ، قولية كالقرآن الكريم ، وفعلية كنبع الماء وإحياء الموتى ، وتركية كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام . ومن جهة المعنى تظهر حقيقة المعجزة على ثلاث معان إيجاد معدوم كخروج الناقة من الصخر ، وإعدام موجود كإبراء الأكمه والأبرص ، وإما تحول الموجود كقلب العصا حية تسعى .

وهى فى أشكالها ومعانيها هى الأمر الخارق للعادة المقترن بدعوى الرسالة والذى يتحدى به النبى ﷺ معارضيه لأنها دليل نبوته .

★ **ومن جهة الوجوب** : تظهر حقيقة المعجزة لان حاجة الناس للمعجزات لا تقل عن حاجة الرسل والأنبياء لها ، إذ هى من ضرورات الإيمان والتصديق بوجود الله وقدرته وأنه تعالى مرسل الرسل الذين اصطفاهم لهداية البشر ، وهى الدليل والبرهان على صدق الأنبياء ورسالاتهم . فالتصديق بها تصديق بقدرة الله وعظمته وشمول قدرته وإرادته وهى من الواجبات لأنها دليل العصمة وهى نفسها عاصمة وحافظة لهم قد طلبها موسى لإنقاذه من فرعون واتباعه وطلبها الرسل للنجاة من قومهم الظالمين ، ومن ثم كانت المعجزات من الواجبات عند طلبها ومن الممكنات عند تعقلها والتفكير فيها .

★ **ومن جهة جوهرها كدليل وبرهان:** هى اختبار لمدى استعداد البشر لتقبل تعاليم السماء ، واختبار لمدى الطاعة وصدق العبادة ، ومن ثم وجب على الرسول إظهارها وتبليغها ، ووجب علينا التصديق بها حال وقوعها والسماع بخبرها سواء كنا من المشاهدين لها الحاضرين لوقوعها أو ممن وصلتنا بالسماع والتواتر بالخبر الصادق بالكتاب والسنة والإجماع ، ولصدق الرسل فى الإخبار عن الله ، ولحقيقة الصدق فى ذاته بوصفه مطابقة الخبر للواقع كما فى الحديث : " صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى "

★ **ومن جهة الإعجاز كقدرة** : فهى سلب القدرة ، لأن المعجز هو الغالب القادر ، والعاجز هو الضعيف المقهور ، فهناك جهة غالبة معجزة وهناك جهة أخرى مغلوبة

أى عاجزة . فالعجز ضد القدرة أى سلب القدرة عن الإنسان فى شئ لا يستطيع أن يقوله أو يفعله أو يتركه . (١)

ثالثاً : حقيقة المعجزة عند المتكلمين :

لقد استعان رجال الكلام بالمعانى اللغوية فى بيان حقيقة المعجزة والحكمة منها ، وأخضعوا مصطلح المعجزة للتأويل مثل باقى المصطلحات الكلامية ، فى محاولة للرد على منكرى المعجزات والقائلين باستحالة النبوات عقلاً كجماعة السمنية والبراهمة والصابئة (٢) وكذلك القائلين بالإمكان كالسلف والأشعرية والذين تمسكوا بالقول بأن المعجزة هى الخارقة .

لذا اهتم رجال الفرق بحقيقة المعجزة وبيان مدى الحاجة إليها وأهم شروطها مع الاجماع على أن المعجزة هى الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدى الذى هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة ، وهى دليل وبرهان صدق النبى ودليل تأييده من قبل القدرة الإلهية المطلقة ، وإنها الآية التى بها هداية البشر وحفظ حياتهم وتنظيم شئونهم وتأكيد إيمانهم بشواهد مادية ومعنوية خارقة تثبت صدق النبوة وهى المعجزة .

---

(١) راجع المعانى الاصطلاحية للمعجزة فى كتب التفسير ، وعلوم القرآن والعقائد وفى : جواهر التفسير . للشيخ أحمد بن حمد الخليلى ط مسقط ص ٤٥ . وفى مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان, ط مؤسسة الرسالة سوريا ، ط١٩٨٣ وط١٠ - مكتبة وهبة القاهرة ١٩٩٧. ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) السمنية : جماعة من أصحاب التناسخ ، اشتهر عنهم القول بقدم العالم وابطال النظر والاستدلال ، وانكروا المعاد والبعث ، وانتشرت آرائهم قبل الإسلام فى بلاد الهند وفارس ، وانكروا النبوة والرسالة .

البراهمة : تنتسب إلى ابرهما الهندى الذى ادعى الألوهية والقدرة الخارقة ووضع كتاباً فى ذم الدنيا وسعادة الفناء ومعنى الخير والشر وانتشرت البراهمة كديانة وثنية فى الهند وفارس وانتقلت إلى اليونان وقالت بتعدد الآلهة والحلول والتناسخ واستحالة النبوة عقلاً .

الصابئة : ديانة وثنية قديمة ، تكونت من عبدة الكواكب والنار . انكروا النبوات واعتقدوا أن الكواكب ملائكة وأن لها أثر فى حياة البشر .

وهذه المعانى جمعها أبو منصور البغدادى ت ٤٢٩هـ فى كتابة " أصول الدين " حين قال : والمعجزة عند المتكلمين هى الأمر الذى يظهر بخلاف العادة فى دار التكليف لإظهار صدق ذى نبوة من الأنبياء أو ذى كرامة من الأولياء ، وهى نقيض القدرة ، والمعجز فى الحقيقة هو فاعل العجز فى غيره وهو الله تعالى .(١)

- **والمعجزة عند المعتزلة كما يقول البغدادى** : هى ما قصد به إظهار الصدق أى صدق من أدعى أنه رسول من قبل الله ، وهى على ضربين : ضرب ينفرد به الله تعالى ولا يدخل تحت قدرة العباد بحال مثل اختراع الأجسام (الخلق من عدم) . وضرب يدخل مثله تحت قدرة العباد ولكن يمتنع عليهم أن يأتوا على مثل ما يقع من الله ، مثل بلاغة القرآن ، فهم يقدرون على اليسير من البلاغة وإن تعذر عليهم الكثير من تجانس قليله وكثيره .

وأضاف الباقلانى إلى ذلك شرط التكليف: أى وقوع المعجزة فى حدود الزمان والمكان . لأن المعجزة خاصة بدار التكليف ولأن ما يظهره الله تعالى فى الآخرة من الأمور الخارجة عن العادة لا يكون بمعجزة .

والمعجزة عند جمهور المتكلمين تقع بقدرة الله على يد النبى ﷺ للتحدى بها بإذن الله ودلالتها على الصدق قطعية ، وهى آية وبرهان تعرف بالضرورة ، ومن ثم فللعقل دور هام فى إدراك حقائق المعجزات وهو سبيل معرفة حجة الرسل والتمييز بينها وبين تمويهات السحرة أو كرامات الأولياء . (٢)

وقد حدد المتكلمون شروط المعجزة المتفق عليها على العموم وهى :

١ - أن تكون المعجزة من فضل الله عز وجل أو ما يجرى مجرى فعلة وإن لم يكن فى نفسه فعلاً .

---

(١) هذا المفهوم هو الذى عارضه ابن رشد لأنه مفهوم عام لايميز بين معجزة وأخرى أو نوع وآخر ، ويجعل كل معجزة خرق للعادة مع أن المعجز العقلي موافق للعادة وموافق للعقل والمنطق والبرهان وهو ما ستعرفه من سياق البحث عند عرض رأى ابن رشد وتمييزه بين المعجز الحسى والمعجز العقلي .

(٢) د. على عبد الفتاح المغربى : النبوة والأنبياء ص ١٢٧ .

٢ - أن يكون فعل المعجزة ناقضاً للعادة فيمن هو معجز له وحجة عليه .وهذا الشرط عارضه الفلاسفة وفى مقدمتهم ابن رشد . وبعض المتكلمين منهم الباقلاني والجويني لأنهم جعلوا للعقل دوراً فى التصديق بالمعجزات وفهمها ولم يوافقوا الرأى القائل بأن المعجزات خوارق خارجة على حكمة الكون وانتظام قوانينه .

٣ - أن يتعذر على المتحدى به فعل مثله فى الجنس أو على الوجه الذى وقع التحدى عليه .

٤ - أن يكون مطابقاً لدعوى من ظهرت عليه على وجه التصديق ، فإما أن شهدت بتكذيبه فهى خارجة من هذا الباب .

٥ - أن لا يتأخر فى دعواه تأخراً يعلم أنه لا يتعلق بها .

٦ - أن يكون ذلك فى زمان التكليف . (١)

وقد حاول الشهرستانى فى كتابه نهاية الإقدام فى علم الكلام الرد على بعض أقوال المتكلمين خاصة قولهم " بأن الخارق للعادة إذا تكرر وتوالى صار معتاداً بالاتفاق ، وقولهم بأن اقتران المعجزة بدعوى المدعى لا ينهض دليلاً على صدقه فقال : إن اقتران المعجزة بدعوى النبى ﷺ نازل منزلة التصديق بالقول وذلك أنه متى عرف من سنة الله تعالى أنه لا يظهر أمراً خارقاً للعادة على يد من يدعى الرسالة عند وقت التحدى والاستدعاء إلا لتصديقه فيما يجرى به واجتماع هذه الأركان إنتهض قرينة قطعية دالة على صدق المدعى ، وكأن المعجزة بالفعل كالتصديق شفاها بالقول .. وأنه لا طريق إلى التصديق الا بالقول والفعل ، وإظهار النبى ﷺ العجز من نفسه ويحيل الحول والقوة إلى مرسله لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يتحرك إلا على متن الهدى ، وأن صدق النبى ﷺ فى جميع أقواله خير دليل قولى على صدقه لأنه لم يدعى الرسالة لنفسه ... . وأن المرجح للصدق هى القراين الحاصلة من اجتماع أمور كثيرة : منها الخارق للعادة ، ومنها كونه مقروناً

---

(١) البغدادى : أصول الدين ص ١٧٠ - ١٨٤ ، وكذلك جوهرة التوحيد للباجورى ومشارق أنوار العقول للسالمى ج٢ - ص ١١ ، ١٢ .

بالدعوى ، ومنها سلامته عن المعارضة ، . ومنها أن الآية الخارقة للعادة كما دلت بوقوعها على قدرة الفاعل وباختصاصها على إرادته وبأحكامها على علمه، كذلك دلت بوقوعها مستجابة لدعاء الداعى ، ومن كانت دعوته مستجابة عند الله يستحيل أن يكون فى دعواه كاذباً على الله تعالى .. ولو أننا لا ننكر أن يظهر خارق للعادة على يد ساحر لكن الشرط هو أن يكون المدعى فى حال ما يدعى مستجاب الدعوة بالآية حتى تكون الآية دالة على صدق حالته ودرجته عند الله .

وأن قرينة الصدق ملازمة لتحدى النبى ﷺ الصادق عند الله ، لأن المعجزة تنقسم إلى منع المعتاد وإلى إثبات غير المعتاد ، أما المنع فكا لجنس من الحركات الاختيارية مع سلامة البنية وإحساس التيسير ، والثانى فى مجرى العادة ومثال ذلك تيه بنى اسرائيل فى قطع الطريق ومنع السحرة من التخييل وحصر زكريا عليه السلام من الكلام المعتاد .

ويفسر الشهرستانى حقيقة المعجزة وهذه الشروط بقوله : إنه يجوز أن يقدر صرف الدواعى عن المعارضة بمثل ما جاء به النبى ﷺ من جنس المعجزات وإن كان ذلك من قبيل مقدوراتهم ولهذا عد بعضهم إعجاز القرآن من هذا القبيل وهو مذهب الجمهور ، ويجوز أن يقدر منع الناس عن التحدى بمثل ما تحدى به النبى ﷺ من جنس المعجزات فلا يقدر أحد على المعارضة بالدعوى فضلاً عن معارضتة بالخارق للعادة ويكون لهذه المعجزة قرينة متصلة بنفس الدعوى ، حتى لا تخلو قط دعوى نبى من الأنبياء عن قرينة الصدق ولا تتأخر الدلالة عن نفس التحدى . (١)

وهكذا كان فهم الشهرستانى لحقيقة المعجزة والصلة الوثيقة بين المعجزات والخوارق وبين التصديق بالرسل واثبات النبوات ووجوب العصمة لهم والتصديق برسالاتهم .

وقد انتقلت هذه الشروط والآراء التى آثارها رجال الكلام إلى كتب التفسير لبيان حقيقة المعجزة ولبيان الفرق بينها وبين الخوارق كالسحر والكرامات وما

---

(١) نهاية الإقدام فى علم الكلام : عبد الكريم الشهرستانى ص ٤٢١، ٤٢٧ .

يظهر على أيدى أصحاب الحيل أو الصالحين من غير الأنبياء ، وأضاف المفسرون إلى أركان الشريعة والإيمان وجوب الإيمان بالمعجزات لأنها السبيل إلى الإيمان والتصديق بالرسل .

كما اهتم رجال السلف ببيان حقيقة المعجزة وشروطها والحاجة إليها وتميزها عن كرامات الأولياء وقالوا : لابد للنبى ﷺ من معجزة واحدة تدل على صدقه فإذا ظهرت عليه معجزة واحدة تدل على صدقه وعجزوا عن معارضته بمثلها فقد لزمتهم الحجة فى وجوب تصديقه ووجوب طاعته فإن طالبوه بمعجزة سواها فالأمر إلى الله عز وجل ، إن شاء أيده بها وإن شاء عاقب المطالبين له بها لتركهم الإيمان بمن قد ظهرت دلالة صدقه ، وهذا خلاف قول من زعم من القدرية أن النبى ﷺ لا يحتاج إلى معجزة أكثر من إستقامة شريعته كما ذهب إليه ثمامة . (١)

وأضاف القرطبى إلى ذلك شرط مسايرة المعجزة لعصرها وأن تكون رسالة وغاية لصاحبها كما كانت معجزة القرآن ، لأن حقيقة المعجزة هى أمر خارق للعادة يظهر على يد من بعثه الله بدعوته من رسله إلى خلقه ، ولكى تكون كذلك , لابد أن تكون المعجزة مما لا يقدر عليه البشر , وأن تكون مؤيدة له ودالة على صدقه , لا دالة على كذبه ، وأن لا يقدر أحد على الإتيان بمثلها لأن لو جاء أحد بمثلها لم تكن معجزة ، وأن تكون مثل المعجزات المعروفة (بشروطها وظروفها) وفى مقدمتها القرآن الكريم وعصا موسى وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام بإذن الله وخروج ناقة صالح من الصخرة ، وأن تتعدد وتتنوع بحسب الظروف (ظروف العصر والإنسان) الذى استوجب نزول الرسالة أو المعجزة ، فمثلاً كانت معجزة إبراهيم عليه السلام عجز النار على إحراقه أمام عبدة النار والأوثان من المجوس والصابئة ، وكانت معجزة موسى عجز السحرة أن يأتوا بمثله فى عصر تقدم السحر فى مصر القديمة ، وكانت معجزة عيس عليه السلام فى ابراء الأكمه والأبرص ومولده بلا أب ، وإحياء الموتى بإذن الله فى عصر تقدم الطب والحكمة والفكر المادى المحسوس .

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ط دار المعرفة بيروت ص ٣٤٤ .

ولأن المعجزات والخوارق من صميم قضايا العقيدة فقد حرص رجال الكلام على فهم حقيقة المعجزة وليس مجرد عرض شروطها وعمدوا إلى تحليل معنى المعجزة وحقيقتها وحكمتها ورفضوا أن تكون المعجزة من الخوارق التى تخرج عن الحكمة الكونية وانتظام قوانين الطبيعة الإلهية . وكان ابن رشد الذى تبنى أراء المتكلمين فى المعجزة أكثرهم شجاعة حين رفض المعنى الظاهر أو المادى لحقيقة المعجزة بوصفها الأمر الذى يظهر بخلاف العادة والذى يخرج عن العادة المألوفة وعلل الكون المعروفة كما رفض أن تكون المعجزة واقعة فى دائرة الممكنات بعيداً عن قوانين السببية والضرورة التى تحكم الوجود الكونى العام .

وكانت خطورة القول باستحالة خرق العادة فيما يترتب عليه من القول باستحالة المعجزات ، وكيف ذلك والمعجزات ضرورة واجبة لحاجة الناس إليها ليصدق إيمانهم بالرسل وبقدره الله ، وحاجة الأنبياء للتأييد والتصديق وحاجة الناس للشرائع والأحكام والرسالات ، وحاجتهم للعلم والمعرفة وتصحيح معتقداتهم وأفكارهم وكذلك عاداتهم .

ولم يجد ابن رشد وكذلك رجال الكلام مخرجاً سوى القول بأن الرسالة هى المعجزة التى يجب إدراكها بالعقل مع استحالة خرقها لقوانين الكون . وأن جوهر الرسالة فى اتساقها وتماسك مبناها وحفظها وتناسق أجزائها وصدق أخبارها وأحكامها وإقناعها لمشاهديها كدليل عقلى وواقعى مقنع بصدق الرسل وقدرة الخالق سبحانه ..

وقد وافق ابن رشد رجال الكلام على تمييزهم بين المعجزات الحسية والمعجزات العقلية وأن المعجزة على الحقيقة هى الآية والوحى المنزل من قبل الله على رسوله لإظهارها وتبليغها وأن هذه الآية ليست كالخارقة التى صاحبت الأنبياء والرسل السابقين .

وهذا ما سنعرضه بالتفصيل فى المبحث القادم عند عرض آراء ابن رشد فى حقيقة المعجزة والفرق بين المعجز الحسى والمعجز العقلى والشروط الواجب توافرها فى المعجزة كآية دالة على وجود الله وقدرته .